مأزق الكعك المحروق

حلمي صابر – رجب 1444هـ

____



تروحُ فيني المعاني وتغدو وأنا خلف نافذتي . صامتا أتأملُ صعودَ ألوانَ الشمسِ

وفي صدري سؤالٌ : هل يومُ اليومِ هو غدِي ؟

تساءلتُ : هل نحن نعيشُ في مخبزٍ للعجنِ والحرقِ ؟!

كل قوالب الطبخ في الأنظمة البشرية الحرة ، لها وجوهٌ مُحرِقة . استبدادٌ في داخل النظام نفسه ، وربما تجاوزت إلى الأنظمة الأخرى . حركة الاستبداد أمرها عجيب ، عجيب جدا . أخبرنا القرآن عن طفلٍ صغير قذفته أمه في الماء لينجو ؛ خافتْ عليه من بطشِ الفرعون الذي خاف من طفلٍ . حملَ الماءُ الطفلَ إلى مركزِ الخوفِ ، وأخذته زوج الخوفِ مشفقةً عليه محبةً . بحثَ الفرعونُ عن مرضعة للطفل ؛ كان الفرعون يبني لمن سيهدمه . وجيء بالأم لترضعه . فرعون لا زال يبحث عن الطفلِ ، والطفلُ أمامه بين يديه ! وهو هو نفسه الطفل الذي يبحث عنه وعليه مقتله . كيف صار هذا !.

فرَّق الفرعونُ بنظامِهِ الناسَ واستعبدهم وجعلهم أحزابا وجماعات ليسيطر عليهم ، كما تفعل أنظمة إدارة الحشود في تفريق الناس ، وتصغير الكُل الضخمة . الفرعونُ ماهرٌ في فن التلاعب بالعقول ، وهم رضوا أن يلعبَ بهم .
الأمر العجيب كما قال لي صاحبي بعبارته : " بين المائين " ماءٌ قُذِفَ فيه ذاك الطفل ونجا، وماء ركبه الفرعون لينجو، لكنَّ الماءَ أهلكه . كيف بدأ وكيف انتهى . هذا الذي عليكَ أنْ تعقلهُ . زعمَ الفرعون أنه ربهم الأعلى ، بل قال لهم الذي أرى هو الذي يجب أن تروا. على الأرضِ ثمانيةَ مليار من البشر ، كيف يتفقوا ؟!.

في الأنظمة المعاصرة نماذج كثيرة من قصة نبينا موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون . الأمثلة كثيرة جدا . ليس بالضرورة أن تكون القصة على مستوى نظام دولة . بل في داخل البيت ، وفي إداراتك التي تعمل فيها ، وفي أنظمة مرور السيارات ، وفي أنظمة الكمبيوترات بل في قطع الصيانة . كل الأنظمة فيها كثير من نموذج فرعون . حتى الطفل الصغير الذي يحبسُ طائرا ، على الطائر الصغيرِ استبدَ . نظام الاستبداد نظامٌ مرٌّ . الانقياد بالقوة ، إذا لم تطع ، الرمي في العقوبات والحبس.

انتبه : حديثي عن الأنظمة البشرية ، وليس حديثي عن التشريعات الربانية في الأديان الثلاثة الكبرى.

أغلب الأنظمة البشرية في دائرتها البشرية تزعمُ لنفسها الكمال. أقول : تزعم لنفسها الكمال حتى أنَّ خبازًا صغيرا في مجلس برلمان المخبز ، يفتري ويتهمُ نظاما آخر بأنَّ أنظمتهم تصدر إرهابيين وعليه لابد من تغيير مدارسهم ونسائهم وأنظمتهم لتصير مثل نظام مخبزهم . المشكلة هاهنا ليس في غرور المخبز البشري فقط ، بل كيف المخبز الأصغر أطاع المخبز الأكبر ، فغيَّر مدارسه وغير مناهجها وغيَّر نساءه وسجن شعبه. عجيبٌ جدا كيف أطاعهم .

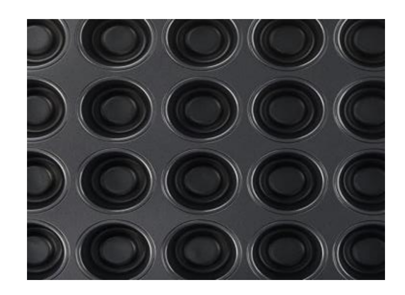
على مستوى الجماعات ، تصنَّفُ جماعةٌ ، بأنها جماعةٌ إرهابية. ولو صنَّفتَ جماعةً أخرى أشدَّ منها بمواصفات تلك ، لاتهمتَ بالإرهاب . مثلا : لو فلسطيني محتَل رمى حجرا صغيرا ، فِعْلهُ إرهاب . ولو جندي إسرائيلي قتلَ امرأة بريئة ضعيفة لم تستجب له عند الحاجز وخرق جسمها بطلقاتِ الرشاش ، ففعلهُ هذا ليس إرهابا بحجة الأمن القومي .

أكرِّرُ بتنبيهك ، لايهمني الأفراد بعينهم في أية مخبز ، الحديث عن الأنظمة . الحديث هنا دقيق جدا ؛ فلا تفهمه بغير ما أردتُ . انظرْ في النزاعات الدولية بين دولتين جارتين حتى لو كانوا إخوة وأبناء عم : ما سبب نزاعهم ؟ . من أشعلَ النزاع ومن يرمي فيه حطبه ؟. بل سائلْ النزاعَ من وضعه ؟! . وليس الكلامُ عن نظام دون نظام ؛ لأنه لا يمكننا أن نعيشَ بلا نظام . بل أجسادنا البشرية منظمة غاية النظام . الكون حولنا في نظام . ليس الإعجاز في القفزات الغير منتظمة . إنما الإعجاز في استمرار النظام . ولهذا يستحيل أن تجد نظاما بشريا سالما من العيوب والنواقص لأنها هذه طبيعته . لا يمكن لبشر أن يوجدَ نظاما ليس بحاجةٍ إلى تعديل وتطوير . بل يصنعُ الاستثماريون العيبَ قصدا ؛ ليظل منتجهم مستهلكا ، ولتنتظرَ المنتج الجديد القادم الذي ينزل تحسينه على دفعات . التلاعب بالتسويق في التسويق يحتاجُ إلى بحثٍ مستقل .

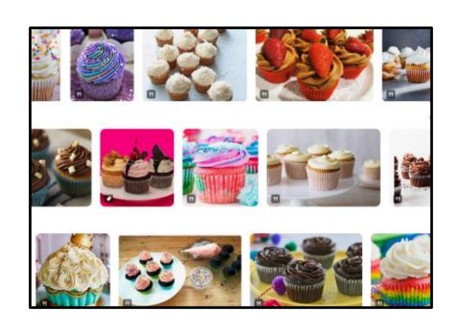
لا يستثنِ كلامي نظاما بشريا – عفوا مخبزا - ولن تراني استثني ؛ لأننا بشر وكل الذي قلته معروف بداهة ، فليس في كلامي شيء جديد عليك . اسمعني جيدا : الحديث كبير في حجم صغير كحجم الكرة الأرضية .

لنتصور أيةَ دولةٍ مخبزا .

هل بدأنا ودخلنا ؟ لافتة عند الدخول " أيةُ شعبٍ يخبزُ في قوالب " .



بالتأكيد لن تكون كل القوالب دائرية ، منها قوالب ثلاثية ، ورباعية وكل الأشكال الهندسية وغيرها باسم الحرية ومرة باسم الوطنية أوكلاهما وفْقَ ما تقتضيهُ الحالة الظرفية . في مخبزنا هذا لنتصور المنتجَ أو الشعبَ كعكا دائريا .



تختلفُ الأفران والقدور في المخابز . منها ما يشتعلُ بالغاز ومنها بالحطب ومنها وقودها المال والثروة ، وبعضها المناصب الإدارية وبعضهم وبعضهن وقودها ليلةٌ يسمونها مخملية ، وبعضُ الوقودِ سرقةُ دولة . وتختلف القدور أيضا : منها ما يتحملُ الضغطَ ، ومنها يجيء في درجات أحجامها متدرجة . كل هذه القدور والأفران متفقة في النهاية على نضج الدماغ ليستوي العقل . الدماغ الجانب الفسيولوجي العضوي ، والعقل الجانب المفهومي المعنوي. الدماغ شيء ، والعقل مفهوم . أرجو بألا يقفزَ خاطرٌ سريعٌ في صدرك بألا نتفق معي في المصطلحات. دعْ عنك

هذا وتصور الموضوع بتعريفيَ للدماغ والعقل . تريدُ أن تعتبرهما شيئا واحدا . افعلْ وليسعني صدرك ولطفك ، فليس الحديث هاهنا عن صواب المصطلح أو خطئه .



أقولُ ، يختلف حجم طبخك بقدر حجم قدرك . تجد قدرا للعالم العربي ، وقدرا للعالم الأفريقي ، وقدورا أخرى كثيرة لكل القارات والبلدان . ومنها قدورٌ لصنع النزاعات كأن تضع عسلا مع ملحٍ في قدر واحد للدول الحليفة ولغير الحليفة بقدور مصنوعةٍ من الطين أو من ستينلس ستيل (Stainless Steel) وغيرهما. قدور الستينلس ستيل خاصة لإسرائيل لئلا يلتصق بها أحد . أوروبيون يهود بين عرب ومسلمين كيف يلتصقان !. أما قلتَ لك ستينلس ستيل.

أيضا قدور لطبخ الهند وباكستان . وقدور لليابان وكوريا وهكذا . لكل قدْرٍ مقاديره من البهارات والطعام . ممكن تحرق الطبخة وممكن تجعلها نصف استواء ، أو استواء كامل ، وبعض الأحيان يكون نيّا . فهو يعتمد على أهداف الطبخة ضمن الخطة التشغيلية وأهدافها المرحلية. بعض الأحيان تجعل البلد عفوا الطبخة جاهزة في المُجَمِّد (الفريزر) ، ثم تخرج الطبخة وتسخنها فقط. هذا يصلح للدول المشاغبة قليلا . مثل العراق سابقا وإيران وكوريا الشمالية وموزمبيق حاضرا. حصار في الفريزر متى ما شئت أخرجتها وفعلت بها ما شئت .

نادرا، مذاقُ الطبخات في المطاعم الكبرى مستويا – **well done** - وكثيرا محروقا . إذا أردت مزيدا من الطعام ودرجاته ، تجده مفصلا في وزارات الخارجية لقوائم الطعام . بعض الأحيان يحصل تضاربٌ في المصالح بين أقسام المطبخ . خاصة بين الوزارات الأمنية مع وزارة الشؤون الخارجية . يصعب أن يتفق طباخان على مقادير الطبخة . فيضطر أن يعمل الطباخ الأمني بسرية تامة . وإذا اعترضَ عليه برَّرَ تصرفه بالأمن القومي .

حتى تبرير الأمن القومي يبدو غامضا . حتى الذي سُجِنَ - عفوا - الذي طُبِخ لا يدري لماذا وكيف طُبِخ . حتى القاضي لا يدري ما التهمة ولا يسأل عن الأدلة ، ولا حتى المحامي يدري ما القضية . بعض الأحيان في القضايا القومية ، المحامي ممنوع للدفاع عن المسجون ، عفوا عن المطبوخ الأمني .

استخدام فرامة اللحم ، له قيود عند الطباخين الشيف المعلمين. إذا المطعم أو المطبخ عنده صواريخ نووية فهذا له تعامل خاص . إذا كان مطبخا ضعيفا فقيرا ، فيبادر بفرمهِ لأنه لا يستطيع الرد عبر القارات كأفغانستان والعراق والفيتنام وغيرها. إذا كان المطبخ كمطبخ كوريا الشمالية - اقتصاد ضعيف بصواريخ نووية عبر القارات – فيفرمُ بحصارهِ وتشويههِ إعلاميا وعالميا ويحضر التعامل معه بعقوبات دولية . إذا استثمرت دولةٌ معه وخالفت ، أقفلوا البنك الدولي عنها ، وأقفلوا كودها البنكي ، وعبثوا بعملتها واقتصادها . شاهدْ أفلام الألمان الحربية وأفلام الهنود الحمر والعرب في الهيليود كمثال على التشويه والفرْم . الكلُ ملتزمٌ بنصِ المسرحية في الأمم المتحدة إلا مؤلفها !.

الظريفُ ، ستقوم الحكومة الكورية الشمالية بنفس التسلط المُسلَّط عليها ، وتتسلط على شعبها . فتجد سيارة شيف الطباخين بإكسسوراتها الأمنية تبلغُ المليون دولارا تقريبا، ويجدُ الشعبُ المطبوخُ مشكلةً كبرى أن يشتريَ بخمسة دولارات دراجةً هوائية. لوحات إعلانات الصواريخ في كل الشوارع موجهة نحو أمريكا ، وينسى الشعب أن شيف الطباخين هو الصاروخ الأطغى المُسلَّطِ عليهم الذي دمرهم . قال لهم : فقركم ومجاعتكم وجهلكم الذي أنتم فيه بسببِ أمريكا . فسحقا لأمريكا صارت نشيدة الطفل في الحضانة وفي المدرسة الابتدائية ! .

كل دولة لها لوحاتها في الشوراع . قد تكون مرئية وغير مرئية . فتجد لوحة إعلانات لمطبخٍ " دجاجنا بلدي أصلي " جذبا للزبائن . السؤال : لمَ لمْ يكن دجاجكم بلدي أصلي سابقا ؟ برروا بكل التبريرات الكاذبة . حتى في هذه اللوحة الإعلانية هم يكذبون : فليس كل منتجات المطبخ من الدجاج البلدي الأصلي . لوحات إعلانية إيرانية " الموتُ لأمريكا وإسرائيل " وهم يقتلون العراقيين والسوريين وصواريخهم موجهة إلى البلدان العربية . يفجروننا التكفيريون في المساجد وعلى أعلامهم : الموت لأمريكا !.

ألم أقل لك كلهم يخبزون ؟! أرأيتَ كم كان سهلا فهم الدول والبشر كمخابز يدوية .

قد تكون في مخبزٍ ، صور جدرانه تمثال الحرية . وبلد آخر شعاره المنجل والمطرقة ، ومخبز آخر شعاره نجومٌ حول نجمة أكبر كالعلم الصيني. وأنا صغير عند مشاهدتي الأفلام الكرتونية وأرى نجوما تدور حول رأس القط أو الفأر أو الثعلب أو الطير إذا اصطك بصخرة أو جدار ، أفرحُ باصطكاكه لأنه مفترسٌ. المشكلةُ ، صار رأسي يدور من هذه الأنجم والألوان والشعارات حينما كبرتُ أيضا . لكنَّ الحياةَ لم تعدْ فيلما كرتونيا .

أعلام الدول ، دعاية كبرى بأناشيدها وغنائها ومناسباتها والافتتاح بها والوقوف لها . يُخْتَزَلُ الوطنُ كله في قطعة قماش بألوانٍ وأشكالٍ شتى . لولا مراعاتي لمشاعر الناس ؛ لجعلتُ من الأعلام قصة أخرى . هبْ أنني مزقتُ كل الأعلام – أظنها جريمة قانونية – أقولُ تخيل فقط أنني فعلتُ هذا ، وجاءوا يهرعون نحوي وسألوني من فعلها، وقلت لهم هذه الأعلام الثلاثة التي مزقتها ، أو قلتُ : هذان الحلفان الناتو ووارسو وأتباعهما مزقتها . أتراهم سيقذفونني في النار انتقاما وانتصارا للخرقِ والقماش . ليتَ قماشَها يُضَمِّدُ الجراح .

خذ مثالا على الحرية في بلد تمثالِ الحرية :

لا يمكنك التحدث عن المحرقة اليهودية في أية بلد حر إلا إذا وقفت في صفِّها وأيدتها . لكن إن وقفت معارضا أو منكرا أو مقللا من أعدادها ، ولو كنت روجيه جارودي لداسوا بك برج إيفل (Tour Efffel)- وقد فعلوه بروجيه في بلد الثورة والحرية وهو من هو في مكانته الثقافية العلمية في فرنسا . أقولُ إن صرتَ معارضا أحرقوك هولوكستيا . وهذا عجيب من عجائب البشر : أنهم ينكرون فِعلا ويقبحونه ، وهم بأنفسهم يفعلونه . كم هولوكوستا فلسطينيا من 1948م إلى اليوم ؟. تجد المرء الأفريقي الحرَّ الذي خطفه الأوروبيون واسترقوه . إذا صار رئيسا ، استرقَ الآخرين . هذا من عجائب البشر . التناقض وعدم التوازن فيما يقع عليه ويرفضه وفيما يفعله .

رأيتُ فيلما وثائقيا مرةً عن طردِ بعض العلماء المتخصصين من بعض الأقسام العلمية في الجامعات الأمريكية لعدم قبولهم نظرية دارون. في آخر الفيلم ألقى معد البرنامج اليهودي كلمة على طلاب جامعة عن قيمة الحرية . وقداسة الحرية الأمريكية . الغريب في الفيلم، يتكرر كثيرا عرض محرقة الهولوكوست كنموذجٍ على الرفض والطرد الذي تفعله الجامعات . هبْ أنني رفضتُ الاحتلال الصهيوني ورفضتُ كثيرا من الهولوكوست . سؤالي لمعِّد البرنامج : ما موقفك مني ؟ هل ستلتزم الحرية معي التي دعوتَ لها ؟! .

مثالا آخر : أكذوبة الأعداد في الديمقراطيات المعاصرة

قيادة أوروبا للعالم المعاصر بعد الحرب العالميتين ، صنعت في العالِم أقساما ونزاعا في كل مكان إلى اليوم . بالتأكيد حضارة الغرب المادية ستستمر لأنها حضارة مادية عالمية مشتركة. سؤال: هل حضارتها الثقافية ستستمر أم أنها ميتة اليوم لأنها أتلفت الإنسان ؟ . أظنه لن تبقى طويلا. لا يمكن أن تكون مقاييس أخلاق الإنسان بعدد الأصوات . هذه أكبر مشكلة الديمقراطيات المعاصرة : مخبز الأعداد.

غيّرِ أعدادَ المُصَّوّتين بأقلَّ أو أكثر وِفْقَ ما تريد ، وتتغير القرارات . واجهتهم مشكلة الأعداد لغزو أفغانستان و العراق؛ فأسقطوا البرجين لتتغير الأعداد ؛ بل معها تغيرت أعداد العالم. مضحكٌ جدا أنَّ مبنى البنتاجون – أضخمَ مبنى أمنٍ عالمي – لا يُعرَفُ إلى اليوم بالتحديد ما الذي خرقَهُ . ظريفٌ جدا ، أنْ عجزَ أساتذة الجامعات والمهندسين معرفة ما أثقب الجدار !. لنرجع إلى مخابزنا .

أخطرُ هذه المخابز

أخطرها الدين . لماذا كان أخطرها ؟ لأنه تترتب عليه الحياة قبل الموت وبعد الموت. لا يخلو مجتمع بشري من دين . حتى الإلحاد دين. نماذج الخداع البشري كثير جدا . وهذا بحاجة إلى بحثٍ مستقل . أكبرُ جريمة يصنعها دين : أن تعبدَ بشرا . أنْ تعطيَ للبشر قداسةً لغير الأنبياء والرسل . يكون إلهك بشرا هذا الذي قصدته . البشر يموتون . من وُلِد سيموت حتما . كيف خدعَ الخبازُ أن جعلَ المقبورَ الميتَ ربًّا !. عجيبٌ جدا حينما يخبز الإنسان نفسه .

ألم تقرأ القرآن ؟! لماذا الأنبياء والرسلُ أُرسِلت ؟!

ألتعبيدِ البشر ؟!. ألتعبيد الصنمَ والقبرَ والترابَ والعَلَم ؟!

رفضَ القرآن والسنة زاعما أنهما أساطير الأولين !

ولم يدرِ بأنهُ في خرافاتِ الأولينَ والمعاصرينَ .

سؤال : من أنزل التوراة والإنجيل قبل القرآن ؟

إتلاف الكعك المحروق :

بالتأكيد سيحترقُ بعض كعكك ؛ هذا أمر معتاد في كل مخبز . يسهل التعامل مع الكعك المحروق إذا كانت لديك مزرعة فيها أبقارٌ ودجاجٌ وطيورٌ وحميرُ وغيرهم ؛ ترمي الكعك المحروق ليأكلونه . لا تقلق ، لن يكون حليب البقر بطعم شوكولا الكعك المدوَّر ، ولن يكون على بيض الدجاج حلاوة التزيين . ولن يصير نهيق الحمار أكثر نعومةً بالكعك المدوَّر . فنهيقه هو نهيقه . مع الاعتذار لأصحاب جمعيات الحمير ؛ عسى ألا يكون في حديثي انتقاصاً لأنشطة جمعياتهم " جمعية الحمير " في مصر ولبنان وكردستان العراق.

المشكلة حينما يكون المحروق : بعض أفراد شعبك الذي لم ينضج دماغه بنارك ومقاديرك وبهاراتك !. ماذا تصنع به ؟ بالتأكيد لن ترميه إلى الحمير . نعم عددته حمارا لأن دماغه لم ينضج كغيره بنشيد وطني ، وبعيدٍ وطني ، وبمناسبات اخترعتها . مناسبة كالحزنِ على ضحايا 11/9 . الظريفُ ، أنَّ من دبَّرها هو الذي دعا إلى حَفْلِها . ممارسة الخداع البشري والعبث البشري قديم قدم الإنسان . الخداع الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وغيره كثير جدا . هذا يحتاج إلى بحثٍ مستقل ، ربما كتبَ بعضهم عنه .

الأسلوب البشري المعاصر مع الكعك المحروق:

أقولُ ، إنَّ رمي الكعك المحروق إلى البقر والحمير والدجاج لن يضرها ولن يضرك . المشكلة في رمي الإنسان البشري . لو استقرأت التاريخ لوجدتَ رمي الإنسان يقع في ثلاثة أصناف رئيسة : تشويه السمعة لئلا يتبعَ المحروقَ أحد . أو الإبعاد بالحبس لئلا يؤثِّرَ المبعود على أحد، أو بالتصفية بالتعذيب والقتل لئلا ينشغل من موزعي الخبز بملاحقة المحروقِ أحد. وكل الأصناف الثلاثة تصب في مصبٍّ واحد : الرفض .

حديث المخابز ، يحتاج إلى كلام طويل لكنني اختصرته لك اختصارا شديدا . وأخيرا : العلاج للكعك البشري المحروق إما الهروب أو المواجهة . لن يستطيع أحد أن يواجه نظاما عالميا دوليا ضخما إلا نبي. والأنبياء لن يجيءَ منهم أحد . إلا نزول عيسى عليه الصلاة والسلام . ولن يجيء نبيا بل تابعا .
حتى ذلك الحين ، ليس إلا الهروب .

الخيار الأول:

هروبٌ من أرضٍ إلى أرض ،
وأين هذه الأرض ؟!
كل الأرض مخابز حارقة ! .

الخيار الأخير:

الهروب من نفسك إلى نفسك بالصمت .
ولهذا ، كتبتُ هذا !.
هل صدَقَ من قال : عاشَ من لا عقْلَ له ؟ أظنه كان أحد الخبازين ! .

وآخرُ الأخير :

بعد كل هذا الفهم للأنظمة البشرية ،
وأنها منتج بشري ناقص ، وصِفتهُ الرئيسية : النقص
تقفُ لحاجةٍ أمامَ موظفِ الشركة : ويقول لك : آسفٌ ، النظام لا يسمح !
ضاعَ حقي لأن المبرمَج لم يضعْ كودا برمجيا في تحويل اليورو إلى روبية ، النظامُ لا يقبلُ روبية .
وفي قاعةٍ أخرى ، مُبرمٌ آخر . قال لي :تجاوزتَ حدَّك .
التهمة : إضرارٌ بالأمن القومي
الحكم : خمسةَ وثلاثون عاما

هل أدركتَ مأزقَ الكعك المحروق ؟!
أخذني السجانُ ودفعني ، وأقفلَ باب حبسي .
صيرَّني كعكا ، والمخبزُ أحرقني !

جلسَ خلفَ حديدَ الحبسِ بلا نافذة ، ولا زالت المعاني تأخذهُ وتأخذني ،
وكان البحرُ يحيطُ بالسجنِ ،
وتذكرتُ قصة موسى عليه الصلاة والسلام والفرعونَ ،
ذاك الذي طيَّب خاطري وسرني .
وتذكرتُ يوسف عليه الصلاة والسلام في الحبسِ
مظلوما بهتانا من شهوةِ ترفٍ في القصر!.
وقبله رموهُ إخوتهَ ، وبيِعَ بيّْعَ العبدِ .
رموا بالحبس من كانت بفضل الله – سبحانه - به نجاتهم .

يا حسرةً ، كم رمينا في سجونِ بلادنا العربية الإسلامية !
كم ثروةً من يوسفينَ في الحبس ضيعنا ؟!.

دعوتُ ربي :
يا ربِّ بلِّغْ سلامي لأخي
وصاحبي
ورفيقي
وقرَّةَ عيني
محبوسا
في كل بلد عربي
وأجنبي .

رجعتُ إلى خلفَ نافذتي ،
منتظرا غروبَ الشمسِ
لترجعَ الشمسُ غدًا صبحًا مُشْرِقةً .

وسألتُ الظلامَ :
متى يا ظلامُ
ظلامكَ ينجلي ؟

انتهى